

النص الكامل

مغامرات

شيرلوك هولمز

١٥

تأليف:
آرثر كونان دويل

لُغز الوجه الأصفر

بالرسومات الأصلية



الأجيَال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

بسم الله الرحمن الرحيم



ذكريات

شيرلوك هولمز

(٣)

لُغز الوجه الأصفر

نُشرت للمرة الأولى في صحيفة «ستراند» الشهرية
في عدد شباط (فبراير) ١٨٩٣

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون



الأجيال
للترجمة والنشر

الطبعة الأولى
٢٠٠٧

العنوان الإلكتروني للناشر
info@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com



آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩ ، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلاّت الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة قرمزية» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.



وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُوير (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

* * *



شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل". وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة

على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨،



وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِية القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠ وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦، لكن دويل لم يشأ أن يعرّفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية

عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

* * *



قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة قرمزية»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١) بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة نُشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة (وعنوانها «المشكلة الأخيرة») في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على «بعث» شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الخالي» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد

التبّت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كوليِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة «عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب عائلة باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقّاد. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومنسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي «العالَم المفقود»، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

❋ ❋ ❋



رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ روايات هولمز وقصصَه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ

لُغز الوجه الأصفر

الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١ ، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة «الظهور الأخير» كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة -وهي «قضايا شيرلوك هولمز»- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند»، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دورْ ستيل، ومنهم و هـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

* * *

من الطبيعي لدى نشر هذه القصص المستندة إلى تلك القضايا التي حوّلتنا فيها مواهبُ رفيقي الرائعة إلى مستمعين أو إلى ممثلين لشيء من الدراما الغريبة أن أتوقف بصفة خاصة عند نجاحاته أكثر من إخفاقاته. والسبب في ذلك لن يكون حفاظاً على سمعته، فمهاراته المتعددة وطاقاته تبدو مثيرة للإعجاب حين يكون في قمة ذكائه، ولكن لأن أحداً ما كان لينجح فيما فشل هو فيه في أغلب الأحيان، وهكذا كانت تلك الحكايات ستظل بلا نتيجة حاسمة إلى الأبد. وعلى أية حال فقد تصادف بين الحين والآخر أن ظهرت الحقيقة حتى حينما أخطأ صديقي، وقد دوّنت بعضاً من هذا النوع من القضايا؛ اثنتان منها يقدّمان أقوى صور التشويق، إحداهما مغامرة طقوس الدفن والأخرى هذه التي أنا على وشك سردها الآن.

كان شيرلوك هولمز نادراً ما يمارس الرياضة لمجرد الرياضة، وعلى الرغم من أنه كان واحداً من أفضل الملاكمين الذين عرفتهم في وزنه على

الإطلاق ومن القلائل القادرين على احتمال المجهود العضلي الكبير إلا أنه كان ينظر إلى العمل الجسماني الغير الهادف كمضيعة للطاقة، ونادراً ما أجهد نفسه إلا إذا كان ذلك في سبيل خدمة العمل، وعندها لم يكن ليتعب أبداً أو يكلّ. لقد كان من المذهل حقاً أن يحافظ على لياقته في تلك الظروف، وربما أمكنه ذلك بفضل نظامه الغذائي وعاداته البسيطة إلى حد التقشف.

في يوم من أيام الربيع الأولى كان شيرلوك هولمز يشعر باسترخاء لدرجة أنه طلب مني الذهاب في نزهة إلى الحديقة، حيث كانت البراعم الخضراء المبكرة تزيّن الأشجار والرؤوس اللزجة المدبّبة لحبات الكستناء قد بدأت تبرز من بين أوراقها. وقد تجولنا معاً لمدة ساعتين، وكشخصين يعرفان بعضهما جيداً فقد قضينا معظم الوقت في صمت، ولم تكن الساعة قد تجاوزت الخامسة عندما عدنا إلى شارع بيكر مرة أخرى.

قال خادم الفندق حين فتح لنا الباب: عذراً سيدي، لقد كان هناك رجل مهذّب يسأل عنك.

رمقني هولمز بنظرة مؤنّبة قائلاً: كل هذا بسبب

نزهة بعد الظهر، هل رحل هذا السيد إذن؟

- نعم يا سيدي.

- ألم تطلب منه الدخول؟

- بلى يا سيدي، لقد دخل.

- كم من الوقت انتظر؟

- نصف ساعة يا سيدي. وقد كان رجلاً بادي القلق، إذ أخذ يسير ويدقّ بقدميه طَوال الوقت الذي قضاه هنا، ومع أنني كنت خارج الغرفة فقد استطعت سماعه. وعندما خرج أخيراً إلى الممر صاح قائلاً: "ألن يحضر هذا الرجل أبداً؟". كانت تلك كلماته يا سيدي فقلت له: "يلزمك أن تنتظر قليلاً"، فقال: "سأنتظر في الهواء الطلق إذن، فأنا أشعر هنا أنني على وشك الاختناق. سأعود بعد وقت قليل". وبعدها خرج، ولم تفلح محاولاتي في منعه من الذهاب.

- حسناً، لقد بذلت كل ما تستطيع.

❋ ❋ ❋

فيما كنا نتجه إلى غرفنا قال هولمز: إن هذا

مزعج جداً يا واطسون، فقد كنت بحاجة ملحة إلى قضية، وهذه تبدو -حسبما يظهر من قلق الرجل- كما لو كانت على قدر من الأهمية. يا للعجب! إن هذا الذي على الطاولة ليس غليونك يا واطسون... لا بد أن هذا الزائر قد خلّفه وراءه. إنه غليون خشبي قديم وجميل مصنوع من الكهرمان كما يسمّيه بائعو التبغ، وإني لأتساءل: كم عدد القطع الكهرمانية الأصلية الموجودة في لندن؟ بعض الناس يقولون إن وجود صورة ذبابة على الغليون دليلٌ على الأصالة. حسناً، لا بد أن هذا الرجل كان منزعجاً جداً ليترك وراءه هذا الغليون الذي يحبّه كثيراً على ما يبدو.

سألته قائلاً: كيف عرفت أنه يحبه؟

- حسناً، أقدّر الثمن الأصلي لهذا الغليون بستة شلنات أو سبعة، وكما ترى فقد تم إصلاحه مرتين، مرة في الجزء الخشبي ومرة في الساق، وكلاهما باستخدام حلقة فضية كما تلاحظ، وربما تساوي أكثر مما يساويه الغليون في الأصل، ولذلك فلا بد أن هذا الرجل يقدّر الغليون ويحبه جداً حيث إنه يفضّل أن يصلحه على أن يشتري غيره بالتكلفة ذاتها.

ولأن هولمز أخذ يقلّب الغليون في يده وهو

يفحصه بطريقته المتأملة الخاصة فقد قلت: هل هناك أي شيء آخر؟

رفع هولمز الغليون إلى الأعلى وطرق عليه بإصبع سبابته الطويل النحيل كأستاذ يلقي محاضرة عن عظمة وقال: من حين لآخر تكون الغلايين ذات منفعة فائقة، فلا شيء أكثر تفرداً منها، ربما ما عدا الساعات وأربطة الأحذية. والدلائل هنا ظاهرة؛ فمن الواضح أن مالك الغليون رجل قوي أعسر ذو أسنان ممتازة، كما أنه مهمل في عاداته وليس بحاجة إلى توفير المال.



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ — Sydney Paget 1893

ألقى صديقي المعلومات باستخفاف، ولكني رأيت أنه ثبّت عينيه عليّ لرؤية ما إذا كنت قد تتبعت تحليله. قلت: أتظن أن الرجل لا بد وأن يكون ثرياً إذا كان يدخّن غليوناً بسبعة شلنات؟

أجاب هولمز وهو يفرغ القليل من الدخان في راحة يده: هذا خليط غروسفينور وثمنه ثمانية بنسات للأونصة، وقد كان قادراً على شراء دخان ممتاز بنصف الثمن. إنه ليس بحاجة إلى التوفير.

- وماذا عن باقي النقاط؟

- من عاداته أن يشعل الغليون على المصابيح والمواقد الغازية، فأنت تستطيع أن ترى أن الغليون متفحم تماماً في أحد الجوانب، وبالطبع فالكبريت لن يفعل ذلك فلماذا يمسك أحد بعود كبريت على جانب غليونه؟ ولكنك لا تستطيع إشعاله بالمصباح دون حرق الجانب. ولأن كل آثار الحرق على الناحية اليمنى فقد استنتجت أنه أعسر، فلو أمسكت بغليونك على المصباح سترى أنه من الطبيعي -وأنت تستعمل يدك اليمنى- أن تعرّض الجانب الأيسر من الغليون للشعلة، وإذا كان من الممكن أن تفعل ذلك لمرة واحدة على الناحية الأخرى فلن يكون ذلك

بشكل ثابت، أما هذا الغليون فقد تم حمله دائماً على هذا الشكل. كما أنه قد ترك علامة من أسنانه على الكهرمان، وهذا لا يحدث إلا إذا كان قوياً ونشيطاً ويملك أسناناً جيدة. آه، إذا لم أكن مخطئاً فإنني أسمعه الآن على الدرج، وسنحظى بشيء أكثر أهمية من هذا الغليون لندرسه.

❋ ❋ ❋

بعد لحظة فُتح الباب ودخل الغرفةَ شاب طويل يرتدي بأناقة غير متكلّفة بدلة ذات لون رمادي داكن و في يده ساعة كبيرة بنية اللون، وقد قدرت أنه في الثلاثين من عمره في حين كان في حقيقته أكبر من ذلك ببضع سنوات.

قال ببعض الحرج: أستمحيكم عذراً، أظن أنه كان عليّ أن أقرع الباب. نعم، بالطبع كان يجب أن أقرع الباب، ولكن الحقيقة هي أنني أشعر ببعض الضيق ويمكن أن يكون هذا هو السبب.

ثم مرّر يده على جبهته كرجل يشعر بالدوار، وبعد ذلك جلس (أو بالأحرى سقط) على أحد الكراسي.

قال هولمز بأسلوبه اللطيف السهل: أستطيع

أن أرى أنك لم تنم لليلة أو اثنتين! إن هذا يتعب الأعصاب أكثر من العمل. هل يمكنني أن أعرف كيف أساعدك؟

- أنا أريد نصيحتك يا سيدي، فلا أعرف ماذا أفعل وحياتي قد تحطمت.

- هل ترغب في استخدامي كمخبر استشاري؟

- ليس هذا فقط، فأنا أريد رأيك كرجل حكيم، رجل عرف الحياة. أريد أن أعرف ماذا يجب أن أفعل في الخطوة التالية، وأدعو الله أن تكون قادراً على مساعدتي.

كان ينفجر بعبارات قصيرة حادة ومتشنجة، وبدا وكأن الكلام في حد ذاته يؤلمه وأن إرادته تُغالب طبيعته لإنهاء ما بدأه. قال: إنه أمر دقيق للغاية، فالمرء لا يرغب عادة في التحدث عن أمور عائلية مع الغرباء، بل يبدو فظيعاً مناقشة سلوك زوجتي مع رجلين لم أرَهما من قبل... من المريع أن يضطر المرء إلى فعل ذلك، ولكن قدرتي على الاحتمال نفدت ويجب أن أحصل على النصيحة.

بدأ هولمز قائلاً: يا عزيزي السيد غرانت مونرو...

فقفز زائرنا من كرسيه وصاح: ماذا! هل تعرف اسمي؟

قال هولمز وهو يبتسم: إذا أردت أن تخفي هويتك فأقترح عليك أن تتوقف عن كتابة اسمك على بطانة قبعتك، أو على الأقل أن تدير رأس



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

قبعتك تجاه من تحدّثه. لقد كنت على وشك القول أنني وصديقي قد استمعنا إلى الكثير من الأسرار الغريبة في هذه الغرفة، وقد حالفَنا الحظ فجلبنا الراحة لكثير من الأرواح المعذَّبة، وأعتقد أنه من الممكن أن نفعل الشيء نفسه من أجلك. ولذلك أرجو -حيث قد يكون للوقت أهمية- أن تمدّني بالحقائق عن قضيتك دون تأخير.

مرّر زائرنا يده على جبهته مرة أخرى كما لو كان يجده أمراً شديد الصعوبة، وقد استطعت أن أرى من كل إشاراته وتعبيراته أنه شخص متحفظ ومستقل بذاته مع مسحة من الكبرياء في طبيعته، فمن المرجَّح أنه اعتاد على إخفاء جراحه بدلاً من إظهارها. ثم فجأة وبحركة عنيفة من يده المغلقة كمَن يُلقي بالتحفظ في مهب الريح بدأ قائلاً: إن الحقائق يا سيد هولمز هي أنني رجل متزوج، وأنا كذلك منذ ثلاث سنوات. وأنا وزوجتي يحبّ أحدُنا الآخرَ بولع شديد ونعيش في سعادة كبيرة، ولم يكن بيننا أي خلاف من أي نوع لا في الأفكار ولا في الأفعال. ولكن منذ يوم الإثنين الماضي نشأ بيننا حاجز بطريقة مفاجئة، وأرى أن هناك شيئاً في حياتها وتفكيرها لا أعرف عنه إلا مقدار ما كنت سأعرفه لو كانت امرأة

غريبة مرّت بي في الشارع. لقد صرنا غرباء، وأريد أن أعرف السبب! لكن هناك شيئاً أريد أؤكد عليه قبل أن أكمل حديثي يا سيد هولمز. إن إيفي تحبني فلا تدع مجالاً للشك في هذا الأمر، إنها تحبني بكل جوارحها والآن أكثر من أي وقت مضى. أنا أعرف ذلك وأحسه ولا أريد المجادلة فيه، فالمرء يستطيع بسهولة معرفة ما إذا كانت المرأة تحبه أم لا تحبه. ولكنْ ثمّة سر بيننا ولن نعود إلى سابق عهدنا حتى يتضح الأمر.

قال هولمز بشيء من نفاد الصبر: أرجو أن تزوّدني بالحقائق يا سيد مونرو.

- سأخبرك بما أعرفه عن ماضي إيفي. لقد كانت أرملة حين قابلتها للمرة الأولى بالرغم من صغر سنها، فقد كانت في الخامسة والعشرين من عمرها فقط، وكان اسمها في ذلك الوقت السيدة هيبرون. كانت قد رحلت إلى أمريكا وهي صغيرة وعاشت في مدينة أطلانطا حيث تزوجت هناك السيد هيبرون الذي امتلك مكتباً جيداً للمحاماة، وقد رُزقا بطفل واحد، وعندما انتشرت الحمى الصفراء في المدينة مات الزوج والطفل بعد إصابتهما بها، وقد رأيت وثيقة موته. وجعلها ما حدث تكره الحياة في أمريكا

فعادت لتعيش مع عمة غير متزوجة في بلدة بينر في ميدلسكس. ويجب عليّ أن أقول إن زوجها تركها في بحبوحة من العيش حيث كانت ثروتها تقدَّر بخمسة آلاف جنيه وخمسمئة جنيه، وكان قد استثمرها بشكل جيد بحيث أصبحت تدرّ عائداً قدره سبعة في المئة في المتوسط. وقد مكثَت في بينر لمدة ستة أشهر فقط قبل أن أقابلها، فأحبّ كلٌّ منا الآخر وتزوجنا بعد ذلك بعدة أسابيع.

وأنا أعمل في التجارة ودخلي يتراوح بين سبعمئة جنيه وثمانمئة، ولذلك فقد وجدنا أنفسنا في راحة مادية فاستأجرنا دارة (فيلاّ) بثمانين جنيهاً سنوياً في نوربوري، وكان يغلب على منزلنا الصغير الطابعُ الريفي إلى حد كبير بالرغم من قربه الشديد من المدينة، فهناك مقهى ومنزلان بالقرب منا وكوخ واحد في الناحية الأخرى من الحقل الذي يواجهنا، ولا توجد منازل أخرى حتى تصل إلى نصف الطريق المؤدي إلى المحطة. وعملي يتطلب ذهابي إلى المدينة في مواسم معينة، أما في الصيف فلديّ القليل لأفعله، وبذلك فقد عشت أنا وزوجتي في منزلنا الريفي في السعادة التي كنا نتمناها. وأؤكد لكما أنه لم يكن بيننا أي خلاف حتى بدأ

هذا الموضوع الملعون. هناك شيء واحد يجب أن أخبركم به قبل أن أمضي قدماً، فعندما تزوّجنا نقلَت زوجتي كل أملاكها لي، وكان هذا ضدّ رغبتي لأنني فكرت كم سيكون الأمر خطيراً إذا ساءت أحوال أعمالي. علي أية حال تلك كانت رغبتها وهذا ما حدث. حسناً، منذ ستة أسابيع جاءت إليّ وقالت: جاك، عندما أخذتَ أموالي قلت إنني إذا أردت أي مال فيجب أن أطلبه منك.

قلت: بالطبع، فكله ملك لك.

قالت: حسناً، أنا أريد مئة جنيه.

ذهلت قليلاً لأنني تصورت أنها كانت تسعى وراء ثوب جديد أو شيء من هذا القبيل، فسألتها: لماذا بالله عليك؟

قالت بطريقتها المداعبة: آه، لقد قلت إنك ستكون مديراً للبنك الخاص بي، والبنك لا يسأل مثل هذه الأسئلة كما تعرف.

قلت: إذا كان هذا ما تريدينه فعلاً فسوف تحصلين على المال بالطبع.

- آه، نعم؛ أنا أريد ذلك حقاً.

- ولن تخبريني لماذا تريدين المال؟

- يوماً ما، ربما، ولكن ليس الآن يا جاك.

فاضطررت إلى الرضا بذلك على الرغم من أن هذا الأمر كان هو السر الأول بيننا، وأعطيتها شيكاً. ولم أفكر في الموضوع ثانية، وربما لا يكون لهذا الأمر أيّ علاقة بما حدث بعد ذلك ولكني فكرت أنّ من الأفضل ذكره.

حسناً، لقد أخبرتكم الآن عن الكوخ الذي لا يبعد كثيراً عن منزلنا حيث يفصل بيننا فقط مجرد حقل، ولكن للذهاب إلى هناك يجب أن تمشي بطول الطريق ثم تدور لتمشي في ممر منحدر، وخلفه مباشرة يوجد بستان لطيف صغير من أشجار الصنوبر الإسكتلندي. ولأن الأشجار من الأشياء المحبَّبة فقد اعتدت الاستمتاع بالتنزه هناك. وقد ظل هذا الكوخ خالياً لمدة ثمانية أشهر، وكان هذا أمراً مؤسفاً حيث إنه مبنى جميل من طابقين وله شرفة على الطراز القديم وبجواره شجرة غنية برائحة الزهور، وقد وقفت مرات عديدة أفكر كيف أنه سيكون منزلاً صغيراً وأنيقاً للعيش فيه... حسناً، في مساء يوم الإثنين الماضي كنت أتمشى في

ذلك الطريق حين قابلتني عربة نقل خالية قادمة عبر الممر، ورأيت كومة من السجّاد والأشياء موضوعة على مقربة من قطعة الأرض العشبية بجوار الشرفة الأمامية، وكان من الواضح أن الكوخ قد سُكن أخيراً. ومررت من أمامه فتساءلت عن طبيعة الناس الذين أتوا ليقيموا بالقرب منا لهذه الدرجة، وبينما أنا أنظر أدركت فجأة بأن هناك وجهاً يراقبني من إحدى النوافذ العلوية.

لم أعرف ما خطب هذا الوجه يا سيد هولمز، ولكن سرَت في جسمي قُشَعْريرة، ولأنني كنت بعيداً قليلاً فلم أستطع تمييز الملامح، ولكن الانطباع الذي أخذته عنه هو أن به شيئاً غير طبيعي وغير إنساني. وقد اقتربت بسرعة إلى الأمام لأحظى برؤية أوضح للشخص الذي يراقبني ولكنه اختفى فجأة بلمح البصر، حتى بدا وكأن ظلام الغرفة قد ابتلعه! ووقفت خمس دقائق أفكر في الأمر وأحاول تحليل انطباعاتي، فقد كنت بعيداً جداً ولم يكن بإمكاني معرفة ما إذا كان هذا الوجه لرجل أم امرأة، ولكن لونه هو ما أثّر فيّ بشدة؛ فقد كان لونه أصفر شاحباً وفيه من الجمود والقسوة ما يجعله غير طبيعي على الإطلاق. وقد كنت منزعجاً جداً فقررت أن

أعرف المزيد عن سكان الكوخ الجدد، فاقتربت وقرعت الباب الذي فتحته امرأة طويلة نحيلة ذات وجه قاس منفّر.

سألتني بلكنة شمالية: ماذا تريد؟



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

أجبتها وأنا أشير ناحية منزلي: أنا جارك وأسكن هناك، وقد عرفت أنكم انتقلتم للتوّ إلى هنا ففكرت أنني يمكن أن أساعدكم في أي...

قالت: سنطلب منك حين نريد ذلك.

ثم أغلقت الباب في وجهي، فانزعجت من رفضها الفظ واستدرت ذاهباً إلى منزلي. وبالرغم من محاولتي التفكير في شيء آخر طوال الأمسية إلا أن عقلي ظل يعود إلى التفكير في شبح النافذة ووقاحة المرأة. وقررت أن لا أقول شيئاً عن ذلك لزوجتي، فهي امرأة عصبية شديدة الحساسية ولم أرغب في تعريضها إلى الانطباع السيئ الذي تعرضت له، وإن كنت قلت لها قبل أن أنام إن الكوخ قد سُكن، ولم أتلقَّ منها أي رد.

أنا أنام في العادة نوماً عميقاً جداً، وهو الشيء الذي كان من النوادر المضحكة في العائلة حيث لا شيء يمكن أن يوقظني. وبالرغم من ذلك، ولسبب ما في تلك الليلة بالذات، فقد نمت نوماً خفيفاً على غير العادة. ولا أعرف إن كان لذلك علاقة بالإثارة الطفيفة التي نتجت عن مغامرتي الصغيرة أم لا، ولكني كنت بين النوم واليقظة حين شعرت بأن شيئاً

ما يحدث في الغرفة. وبالتدريج أدركت أن زوجتي كانت ترتدي ملابسها وتضع عباءتها وقبعتها، وفتحت شفتيّ لأتمتم ببعض الكلمات الناعسة التي تنمّ عن الدهشة والاعتراض على هذا الأمر في ذلك الوقت غير الملائم، وفي تلك اللحظة بالذات وقعت عيناي شبه المفتوحتين على وجهها وقد أناره ضوء الشمعة فشلّت الدهشة لساني؛ ذلك أنني لم أرَ مثل هذا التعبير المرتسم على وجهها من قبل. كانت شاحبة جداً وتتنفس بسرعة وتنظر باتجاه السرير فيما هي تضع العباءة لترى إن كانت قد أزعجتني، وبعدها تسلّلت بلا ضجة إلى خارج الغرفة ظناً منها أنني ما زلت نائماً. ثم سمعتُ صريراً لا يصدر إلا من مفصلّات الباب الأمامي، فجلست في سريري وطرقت بإصبعي على حاجز السرير لأتأكد من أنني مستيقظ حقاً، وأخذت ساعتي من تحت الوسادة فإذا بها تشير إلى الثالثة صباحاً، فماذا بالله عليك يمكن أن تفعل زوجتي خارجاً في الطرقات الريفية في الساعة الثالثة صباحاً؟!

وجلست لمدة عشرين دقيقة أقلّب الأمر في عقلي محاوِلاً العثور على تفسير معقول، ولكن كلما فكرت في الأمر وجدته غيرَ عادي وغيرَ قابل

للتفسير. وبينما كنت لا أزال أفكر في الأمر محتاراً سمعت الباب يُغلَق بهدوء وصوت خطوات أقدامها تصعد الدرج. فسألتها حين دخلت: أين كنت يا إيفي؟

جفلت وشهقت صائحة عندما تكلمت، وقد أزعجتني جفلتها وصرختها أكثر من كل ما حدث؛ فقد وجدته ردّ فعل يوحي بشيء من الذنب لا يمكن تفسيره. لقد كانت زوجتي دائماً امرأة ذات طبيعة صريحة، ولذلك فقد سرت قُشَعريرة في جسمي لرؤيتها تتسلل إلى غرفتها وتصيح وتجفل حين يخاطبها زوجها.

صاحت بضحكة عصبية: أأنت مستيقظ يا جاك؟ يا للعجب! اعتقدت أن لا شيء يمكن أن يوقظك.

سألتها بصرامة أكبر: أين كنت؟

لاحظت ارتعاش يديها وهي تفكّ أزرار معطفها وتقول: لا عجب في دهشتك، يا إلهي! أنا نفسي لا أتذكر قيامي بشيء مماثل في حياتي من قبل. في الحقيقة لقد شعرت أنني أختنق ووددت أن أستنشق بعض الهواء، فقد ظننت حقاً أنني سأفقد

الوعي إذا لم أخرج، فوقفت بباب البيت لعدة دقائق والآن عدت لطبيعتي مرة ثانية.

ولكنها لم تنظر باتجاهي طوال الوقت الذي كانت تقصّ فيه عليّ هذه القصة، وكانت نبرة صوتها غير عادية ومن الواضح أن ما تقوله غير صحيح. ولم أردّ عليها بشيء بل أدرت وجهي إلى الحائط وأنا منقبض القلب يملأ قلبي ألفُ شك وارتياب، فما الذي تخفيه زوجتي عني؟ وأين كانت خلال ذلك الغياب الغريب؟ وشعرت أنني لن أستعيد هدوئي وراحة بالي حتى أعرف، ولكني جَبُنتُ عن سؤالها مرة أخرى بعدما أخبرتني بما ليس صحيحاً، وقضيت بقية الليل أتقلب وأكوّن النظرية تلو الأخرى وكل واحدة أقل احتمالاً من التي سبقتها.

كان يجب أن أذهب إلى المدينة في ذلك اليوم، ولكني كنت منزعجاً جداً ولم أكن لأستطيع الانتباه في العمل، وبدت زوجتي منزعجة مثلي وكنت أستطيع رؤية ذلك من النظرات الخاطفة المتسائلة التي استمرت بإرسالها إليّ معبّرة عن أنها تفهم أنني لم أصدّق ما قالته وأنها لا تعرف ماذا تفعل... ولم نتبادل الكلام في أثناء الإفطار، وبعده مباشرة خرجت لأتمشى أملاً في أن أدرك شيئاً من

الأمر في هواء الصباح النقي.

ثم ذهبت إلى الكريستال بالاس فقضيت ساعة في الساحة وعدت إلى نوربوري في الساعة الواحدة، وتصادف أنني مررت أمام الكوخ فتوقفت لحظة أنظر إلى النوافذ متسائلاً إذا ما كنت أستطيع رؤية الوجه الغريب الذي راقبني في اليوم السابق. وبينما أنا أقف هناك... تخيل دهشتي يا سيد هولمز؛ فُتح الباب فجأة وخرجت منه زوجتي!

شلّت الدهشة لساني عندما رأيتها، ولم تكن مشاعري لتذكَر مقارنة بالمشاعر التي ظهرت تعبيراتها على وجهها حين التقت عيوننا، وبدت للحظة وكأنها تتمنى أن تختفي داخل الكوخ ثانية. وحين أدركَت أن المواراة لن تجدي نفعاً تقدمت بوجه شديد الشحوب وعينين خائفتين كذّبَتا الضحكة المرتسمة على شفتيها وقالت: آه، جاك... لقد جئت لأرى ما إذا كنت أستطيع تقديم المساعدة لجيراننا الجدد، فلماذا تنظر إليّ بهذه الطريقة؟ أنت لست غاضباً مني، أليس كذلك؟

قلت: إذن لقد جئت إلى هنا في الليل؟

صاحت قائلة: ماذا تعني؟

- لقد جئتِ إلى هنا، أنا متأكد من ذلك. فمَن هؤلاء الناس الذين كان يجب عليك زيارتهم في مثل تلك الساعة؟

- لم آتِ إلى هنا من قبل.

صحت قائلاً: كيف تخبرينني ما تعرفين أنه غير صحيح، فحتى صوتك يفضحك حين تتكلمين. هل حدث قَطّ أن أخفيت سراً عنك؟ سأدخل إلى الكوخ وأكتشف كل شيء.

شهقت في نوبة انفعال جامحة وقالت: لا، لا يا جاك، بالله عليك!

وحين اقتربتُ من الباب بعد ذلك أمسكَت بكمي وسحبتني إلى الخلف بقوة متشنجة وهي تقول: أتوسل إليك أن لا تفعل ذلك يا جاك. أقسم لك أنني سأخبرك بكل شيء في يوم من الأيام ولكن دخولك الآن لن يجلب علينا سوى الشقاء.

وحينما حاولتُ الإفلات منها تمسّكَت بي في توسل محموم وصاحت: ثِقْ بي يا جاك، ثِق بي في هذه المرة فقط ولن تندم أبداً على ذلك. أنت تعرف أنني لم أكن لأخفي عنك سراً إلا إذا كان ذلك لمصلحتك، فحياتنا كلها معرضة للخطر بهذا الأمر،

ولو جئت معي إلى المنزل فسيصبح كل شيء على ما يرام، أما إذا اقتحمت هذا الكوخ فسوف ينتهي كل شيء بيننا إلى الأبد.

كان في سلوكها من الجِدّ واليأس ما جعل كلماتها تتمكن مني، فتوقفت متردداً أمام الباب.



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ — Sydney Paget 1893

وأخيراً قلت: سأثق بك بشرط واحد... شرط واحد فقط، وهو أن ينتهي هذا اللغز الآن ويكون لك الحرية في حفظ سرك على أن تعديني بأن لا يكون هناك المزيد من الزيارات الليلية وأن لا تفعلي شيئاً بغير علمي. أنا على استعداد لنسيان ما مضى إذا وعدتِني بأن لا يكون هناك المزيد في المستقبل.

صاحت قائلة وهي تتنهّد بارتياح كبير: كنت واثقة أنك ستثقِ بي. سيكون الأمر كما تتمنى، تعال... آه، تعالَ لنذهب إلى المنزل.

وقادتني بعيداً عن الكوخ وهي ما تزال متشبّثة بكمي، وبينما نحن نبتعد ألقيت نظرة خاطفة إلى الوراء، وهناك كان ذلك الوجه الأصفر الشاحب يراقبنا من النافذة العلوية. ما هي الصلة الممكنة بين هذا المخلوق وبين زوجتي؟ وكيف يمكن لتلك المرأة القاسية الغليظة التي رأيتها في اليوم السابق أن تكون على صلة بها؟ لقد كان لغزاً محيّراً، وكنت على يقين من أنني لن أشعر بالراحة حتى أحلّه.

ومكثت في المنزل يومين بعد ما حدث، وبدا أن زوجتي ملتزمة باتفاقنا بإخلاص لأنها -بحسب علمي- لم تخرج من المنزل نهائياً، وإن كنت قد

حصلت في اليوم الثالث على دليل بأن وعدها المقدّس لم يكن كافياً ليبقيها بعيداً عن هذا المؤثر السري الذي يبعدها عن زوجها وواجبها، فقد ذهبتُ إلى المدينة في ذلك اليوم ثم عدت بقطار الساعة الثانية وأربعين دقيقة بدلاً من قطاري المعتاد في الثالثة وست وثلاثين دقيقة، وحين دخلت إلى المنزل جرت الخادمة إلى الصالة بوجه مذعور فسألتها: أين سيدتك؟

أجابت: أعتقد أنها خرجت لتتمشى.

وامتلأ عقلي بالشك فوراً فأسرعت إلى الطابق العلوي لأتأكد من أنها ليست بالمنزل، وفيما أنا أفعل ذلك تصادف أن نظرت من إحدى النوافذ العلوية فرأيت الخادمة التي تحدثت معها للتو تجري عبر الحقل باتجاه الكوخ، وعندها فهمت ما معنى ذلك كله... فقد ذهبت زوجتي إلى هناك وطلبت من الخادمة أن تناديها إذا حدث ورجعْتُ.

نزلت مسرعاً يتملكني الغضب وهرعت وأنا أنوي إنهاء هذا الأمر إلى الأبد، ورأيت زوجتي ومعها الخادمة فلم أتوقف للحديث معهما لأن السر الذي ألقى بظلاله على حياتي موجود في الكوخ،

وقد أقسمت على أن لا يكون سراً بعد الآن وليحدث ما يحدث.

عندما وصلت لم أدقّ على الباب بل أدرت المقبض واندفعت إلى الممر. كان كل شيء هادئاً ساكناً في ساحة المنزل، أما في المطبخ فكانت الغلاّية تئزّ على النار فيما كانت هناك قطة كبيرة سوداء ترقد في السلة، ولكن لم يكن هناك أثر للمرأة التي رأيتها من قبل. وجريت إلى الحجرة الأخرى ولكنها كانت مهجورة أيضاً، ثم ارتقيت الدرَج لأجد غرفتين أخريين خاليتين، بل ومهجورتين، في الأعلى! لم يكن هناك أحد على الإطلاق في المنزل كله، أما الأثاث فكان سوقيّاً إلا في إحدى الغرف التي سبق وأن رأيت من نافذتها ذلك الوجه الغريب... كانت تلك الغرفة مريحة وأنيقة، وازدادت شكوكي اشتعالاً حين رأيت على رفّ المدفأة نسخة من صورة لزوجتي كانت قد التُقطت بناءً علي رغبتي منذ ثلاثة أشهر فقط!

بقيت في المنزل مدة كافية لأتأكد من أنه خالٍ تماماً، وبعدها غادرت وأنا أحس بثقل في قلبيٍ لم أشعر به من قبل. وحين دخلت إلى المنزل قابلتني زوجتي في الصالة، ولكني كنت مجروحاً وغاضباً

لدرجة أنني لم أستطع التحدث إليها فتجاوزتها مندفعاً إلى غرفة مكتبي، فتبعتني قبل أن أتمكن من إغلاق الباب.

قالت: أنا آسفة لعدم التزامي بوعدي لك يا جاك، ولكن لو عرفتَ كل الظروف فأنا على ثقة من أنك ستغفر لي.

قلت: فأخبريني بكل شيء إذن.

صاحت قائلة: لا أستطيع يا جاك، لا أستطيع.



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

قلت: لن يكون بيننا أي ثقة أبداً حتى تخبريني مَن كان يسكن ذلك الكوخ ولِمَن أعطيتِ صورتك.

ثم ابتعدت عنها وغادرت المنزل. كان ذلك بالأمس يا سيد هولمز، ولم أرَها من ذلك الحين ولا أعرف أي شيء آخر عن هذا الأمر الغريب الذي وقف حائلاً بيننا، وقد هزّني لدرجة أنني لم أعد أعرف ما هو أفضل ما يمكنني عمله. وفجأة في هذا الصباح خطر لي أنك الرجل الذي يستطيع نصحي فأسرعت إليك لأضع نفسي بين يديك، فلو أن هناك أي نقطة لم أوضّحها فاسألني عنها لو سمحت، ولكن قبل كل شيء أخبرني بسرعة ماذا أفعل حيث إن هذا الشقاء يفوق احتمالي.

استمعت أنا وهولمز باهتمام كبير إلى ذلك التصريح الغير العادي الذي قُدِّم بطريقة متشنجة منكسرة لرجل يرزح تحت تأثير مشاعر عنيفة. وجلس رفيقي صامتاً لبعض الوقت يسند ذقنه على يده وهو غارق في التفكير، ثم قال أخيراً: أخبرني، هل أنت متأكد من أن الوجه الذي رأيته وجه رجل؟

- لا أستطيع الجزم بذلك حيث إنني كنت على مسافة بعيدة عنه في كل مرة رأيته فيها.

- ولكن يبدو أنه ينتابك شعور سيء ناحيته على أية حال؟

- لقد بدا لونُه غيرَ طبيعي كما أن في ملامحه قسوة غريبة، وعندما اقتربت تلاشى بانتفاضة.

- كم مضى من الوقت منذ طلبَت منك زوجتك المئة جنيه؟

- شهران تقريباً.

- هل سبق أن رأيت صورة لزوجها الأول؟

- لا؛ لقد اندلع حريق عظيم في أطلانطا بعد وفاته بفترة قصيرة فدُمّرت كل أوراقها.

- وبالرغم من ذلك فهي تملك وثيقة وفاته وقد قلتَ إنك رأيتها؟

- نعم، لقد استخرجَت نسخة مطابقة بعد الحريق.

- هل سبق أن قابلت أحداً كان يعرفها في أمريكا؟

- لا.

- هل تحدثَت قط عن زيارة أمريكا مرة أخرى؟

- لا.

- أو استقبلت رسائل منها؟

- لا.

- شكراً. أرغب في التفكير الآن في هذا الأمر لبعض الوقت، فإذا كان الكوخ قد هُجِر بصفة دائمة فقد تواجهنا بعض الصعوبة، أما إذا كان قد تم إنذار سكّانه بقدومك فغادروه قبل دخولك أمس (وهذا ما أظنه) فعندئذ ربما كانوا قد عادوا الآن ويمكننا حل المشكلة بسهولة. والآن دعني أنصحك بأن تعود إلى نوربوري وتتفحص نافذة الكوخ مرة أخرى، فإذا وجدت سبباً يدعوك إلى الاعتقاد بأنه مأهول فلا تقتحمه ولكن أرسِلْ إليّ برقية وسأكون وصديقي معك في غضون ساعة من استلامها، وسوف نتوصل عندها إلى حقيقة الأمر بسرعة.

- وإذا كان لا يزال خالياً؟

- في هذه الحالة سآتي غداً وأناقش الأمر معك. وداعاً، وأهمّ شيء هو أن لا ينتابك الخوف قبل أن يكون لديك سبب مؤكد له.

* * *

قال رفيقي بعد عودته من مرافقة السيد غرانت مونرو إلى الباب: أخشى أن يكون في هذا الأمر ما يسوء يا واطسون، ما رأيك؟

أجبته: إن فيه ما يوحي بشيء بغيض.

- نعم، سأكون مخطئاً جداً إن لم يكن في هذا الأمر عملية ابتزاز.

- ومَن هو المبتز؟

- حسناً، لا بد أنه ذلك المخلوق الذي يعيش في الغرفة الوحيدة المريحة في ذلك المكان والذي يضع صورة للزوجة فوق المدفأة. أقسم يا واطسون أن هناك شيئاً ملفتاً للنظر جداً يتعلق بذلك الوجه الأصفر في النافذة، ولم أكن لأضيع هذه القضية بأي ثمن.

- هل كوّنت نظرية؟

- نعم، نظرية مؤقّتة، ولسوف أُدهَش كثيراً لو لم يثبت أنها صحيحة: إن الزوج الأول لتلك المرأة موجود في ذلك الكوخ.

- لماذا تعتقد ذلك؟

- بأي شيء سوى ذلك يمكنك تفسير قلقها

المحموم من دخول زوجها الثاني إلى الكوخ؟ إن الحقائق -كما أتصورها- هي كالتالي: إن هذه المرأة كانت متزوجة في أمريكا، وربما أُصيب زوجها ببعض الصفات الكريهة، أو لنقل إنه أصيب بمرض كريه وأصبح منبوذاً أو معتوهاً، فابتعدت عنه في النهاية وعادت إلى إنكلترا حيث غيّرت اسمها وبدأت حياتها (كما كانت تعتقد) بداية جديدة. ومرّت بعد ذلك ثلاث سنوات على زواجها وبدأت تعتقد أنها في موقف آمن حين اكتشف زوجها الأول مكان وجودها، أو لنفترض أن امرأة عديمة الضمير قد ربطت نفسها بهذا العاجز وأرسلا خطاباً إلى الزوجة ليهدّداها بأنهما سيحضران ويفضحانها. عندئذ تطلب الزوجة مئة جنيه وتسعى لرشوتهما، ولكنهما يأتيان بالرغم من ذلك، وحين يذكر الزوج لزوجته عَرَضاً أن قوماً قد سكنوا الكوخ تعرف الزوجة بطريقة ما أنهم مُطارِدوها، فتنتظر حتى ينام زوجها وتسرع محاولة إقناعهم بأن يتركوها في سلام. وحيث إنها لم تنجح فإنها تعود ثانية في الصباح التالي ويقابلها زوجها وهي تخرج فتَعِده بأن لا تذهب هناك مرة أخرى، ولكن بعد يومين يدفعها الأمل في التخلص من هؤلاء الجيران المزعجين إلى القيام بمحاولة أخرى فتأخذ معها صورتها التي من

المحتمل أن تكون قد طُلبت منها وتذهب إليهما، وبينما هم في وسط المقابلة تندفع الخادمة لتقول إن سيدها قد عاد إلى المنزل. ولأن الزوجة تعرف أنه سيتجه إلى الكوخ رأساً فإنها تسرع بإخراج الساكنين من الباب الخلفي إلى بستان أشجار الصنوبر على الأرجح والذي قيل إنه قريب، وبهذه الطريقة يجد الزوج المكان مهجوراً. وسأكون في شدة الدهشة إذا كان لا يزال على هذه الحال حين يستكشفه الزوج في المساء. ما رأيك في نظريتي؟

- هذا كله مجرد تخمين.

- ولكنه يغطي كل الحقائق على الأقل، وحين تصلنا حقائق أخرى لا تؤيده سيكون الوقت مناسباً لإعادة النظر فيه. ولن نستطيع فعل أي شيء حتى نتسلم الرسالة من صديقنا في نوربوري.

* * *

لم ننتظر لوقت طويل، حيث وصلت الرسالة في الوقت الذي انتهينا فيه من شرب الشاي وفيها: «الكوخ ما يزال مسكوناً. رأيت الوجه ثانية في النافذة. أنتظركم في قطار السابعة. لن أتخذ أي إجراء حتى تصلوا».

كان الزوج ينتظرنا على الرصيف حين خرجنا واستطعنا رؤية شحوبه الشديد في ضوء مصابيح المحطة، كما أنه كان يرتجف من شدة الانفعال. أمسك بكمّ صديقي بشدة وقال: إنهما ما زالا هناك يا سيد هولمز، لقد رأيت أضواء في الكوخ وأنا في طريقي إلى هنا. لننتهِ من هذا الأمر إلى الأبد!

سأله هولمز فيما هو يمشي على الطريق المظلم المحاط بالأشجار على الجانبين: ما هي خطتك إذن؟

- سأقتحم المكان لأرى بنفسي مَن في البيت، وأرجو أن تكونا هناك لتشهدا على ذلك.

- هل أنت مصمم على فعل ذلك بالرغم من تحذير زوجتك بأنه من الأفضل أن لا تحاول حل اللغز؟

- نعم، أنا مصمم.

- حسناً، أحسب أنك على حق؛ فالحقيقة أيّاً كانت أفضل من الشك غير المؤكد. لنذهب إلى هناك على الفور، وإن كنا بعملنا هذا قد نضع أنفسنا تحت طائلة القانون، ولكن الأمر يستحق المحاولة.

* * *

كانت ليلة حالكة الظلام، وبدأ المطر الخفيف يهطل حين تركنا الطريق السريع واتجهنا إلى ممر ضيق عميق الحفر محاط على جانبيه بالأشجار، حيث تقدم السيد مونرو إلى الأمام بسرعة وقد مشينا خلفه بأسرع ما يمكننا.

تمتم وهو يشير إلى ضوء بين الأشجار: هذه الأضواء من منزلي، وها هو هناك الكوخ الذي سأدخله.

انعطفنا في الممرّ وهو يتحدث، وكان المبنى قريباً منا فيما ظهر عمود أصفر من الضوء على الأرض السوداء أمام المنزل مما يوحي بأن الباب غير مغلق تماماً. كانت إحدى نوافذ الدور العلوي مضاءة، وحين نظرنا هناك رأينا ظلاً أسمر يتحرك خلف الستارة.

صاح غرانت مونرو: ها هو ذا المخلوق. تستطيعان بأنفسكما رؤية أن في البيت أحداً، والآن اتبعاني وسنعرف كل شيء عمّا قريب.

اقتربنا من الباب، ولكن فجأة ظهرت امرأة من وسط الظلام لتقف في الأثر الذهبي لضوء المصباح. لم أستطع رؤية وجهها في الظلام ولكنها كانت تمدّ

ذراعيها باستعطاف قائلة: لا تفعل ذلك يا جاك بالله عليك؛ لقد توجست من أنك ستأتي هذا المساء، أعِد التفكير في الأمر يا عزيزي، ثق بي مرة أخرى ولن تندم.

صاح بصرامة: لقد وثقت بك بما فيه الكفاية يا إيفي. اتركيني أذهب... يجب أن أتجاوزك فأنا وأصدقائي سنحسم هذا الأمر إلى الأبد.

دفعها جانباً وتبعناه عن قرب، وحين دفع الباب ليفتحه اندفعت امرأة عجوز لتقف أمامه وحاولت أن تسد عليه الممر، ولكنه دفعها إلى الخلف. وبعد لحظة كنا جميعاً على الدرج، وأسرع غرانت مونرو ليدخل الغرفة المضاءة فيما تبعنا خطاه.

كانت غرفة دافئة مفروشة جيداً وفيها شمعتان تشتعلان على الطاولة واثنتان على رف المدفأة، وفي الزاوية جلست مَن بدت كطفلة صغيرة منحنية على مكتب، وكان وجهها ملتفتاً إلى الناحية الأخرى حين دخلنا لكننا رأينا أنها ترتدي ثوباً أحمر وقفازاً طويلاً أبيض اللون. وحين أدارت وجهها ناحيتنا أطلقت صرخة فزع ودهشة؛ فالوجه الذي أدارته باتجاهنا كان أصفر شاحباً بغرابة والملامح كانت بلا أي تعبير.

وبعد لحظة واحدة تم حل اللغز حين مدّ هولمز يده وهو يبتسم إلى ما خلف أذن الطفلة فانزاح القناع عن وجهها، وهناك كانت زنجية سوداء بلون الفحم تضحك بملء شدقيها من وجوهنا المستغرِبة، فانفجرتُ في الضحك متعاطفاً مع مرحها، أما غرانت مونرو فقد وقف محملقاً وقد أمسك رقبته بكلتا يديه وصاح: يا إلهي! ماذا يعني هذا؟

صاحت المرأة مقتحمة الغرفة بوجه صارم: سأخبرك معناه. لقد أجبرتني على إخبارك بالرغم



Sydney Paget 1893 رسم سدني باجيت ١٨٩٣

من معارضتي لذلك، والآن يجب علينا أن نتعامل مع الأمر. لقد مات زوجي في أطلانطا ولكن طفلتي نجت.

- طفلتك؟!

سحبت قلادة فضية كبيرة من صدرها وقالت: أنت لم ترَ هذه مفتوحة من قبل.

- لقد فهمت أنها لا تُفتَح.

ضغطت زرّاً صغيراً فانفتحت القلادة، وكانت في داخلها صورة لشاب وسيم جداً يبدو عليه الذكاء، ولكن ملامحه تدل على أنه ينحدر من أصول إفريقية بلا شكّ.

قالت السيدة: هذا هو جون هيبرون من أطلانطا، وقد كان أنبل إنسان عرفته. لقد عزلت نفسي عن أبناء جنسي الأبيض لأتزوجه، ولم أندم للحظة طوال حياته على قيامي بذلك، ولكن سوء حظنا أن طفلتنا الوحيدة ورثت اللون عن أهله وليس عن أهلي، وهو ما يحدث غالباً في هذه الزيجات. فالصغيرة لوسي جاء لونها أكثر سواداً مما كان عليه أبوها، ولكن أياً كانت سوداء أو بيضاء فإنها فتاتي الصغيرة العزيزة.

جرت الطفلة عند سماعها هذا الكلام فاستكانت بين يدي السيدة، وعندها أكملت قائلة: وقد تركتها في أمريكا فقط لأن صحتها كانت ضعيفة وكان التغيير سيضرها، ووضعتها في رعاية امرأة إسكتلندية مخلصة كانت خادمتنا ذات يوم. ولم أحلم قط بنكرانها كابنتي، ولكن حين رماك القدر في طريقي -يا جاك- وأحببتك خفت أن أخبرك عن ابنتي، فليسامحني الله. لقد خفت أن أخسرك ولم أملك الشجاعة لإخبارك، وأحسستُ أن عليّ الاختيار بينكما، وفي لحظة ضعفي أدرت ظهري لابنتي الوحيدة واحتفظت بوجودها سراً عنك لمدة ثلاث سنوات. ولكني عرفت أخبارها من الممرضة وعرفت أن كل شيء يسير كما ينبغي، وفي النهاية تمكّنَت مني رغبة جارفة في أن أرى طفلتي من جديد، وقد قاومت تلك الرغبة ولكن بلا جدوى. وبالرغم من معرفتي بخطورة الأمر فقد قررت أن أُحضر الطفلة إلى هنا ولو حتى لأسابيع معدودة، فأرسلت إلى الممرضة مئة جنيه وأعطيتها تعليمات عن هذا الكوخ لتستطيع المجيء كجارة لنا من غير أن تُظهر صلتي بها، واتخذت الاحتياطات القصوى لدرجة أنني أمرتها بإبقاء الطفلة داخل المنزل في أثناء النهار وبتغطية وجهها الصغير ويديها حتى لا يثرثر من قد

يراها من النافذة بأن هناك طفلة سوداء في الجوار. ولو كنت أقل حذراً لكان ذلك أكثر حكمة، ولكنني كنت خائفة جداً من أن تعرف الحقيقة. وقد كنتَ أنت مَن أخبرني أولاً أن الكوخ قد سُكن، وكان يجدر بي أن أنتظر حتى الصباح لكنني لم أستطع النوم بسبب شدة الانفعال، فتسللت أخيراً إلى الخارج لمعرفتي بصعوبة إيقاظك. لكنك شاهدتني وأنا ذاهبة فكان ذلك بداية متاعبي، ففي اليوم التالي كان سرّي تحت رحمتك ولكنك أحجمت عن ملاحقة الأمر لنبلك، وبعدها بثلاثة أيام هرّبتُ الممرضة والطفلة من الباب الخلفي قبل اقتحامك الباب الأمامي مباشرة.

وأخيراً قالت: "والآن وقد عرفتَ كل شيء جاء دوري لأسألك عمّا سيحدث لنا أنا وطفلتي"، ثم شبّكت يديها وانتظرت الإجابة.

مرّت عشرُ دقائق كاملة قبل أن يقطع غرانت مونرو الصمت الطويل، وجاءت إجابته كواحدة من أحبّ الذكريات إلى قلبي؛ فقد حمل الطفلة الصغيرة وقبّلها، وكان ما يزال يحملها حين مدّ يده إلى زوجته واتجه ناحية الباب حيث قال: يمكننا أن نناقش الأمر براحة أكبر في المنزل. أنا لست رجلاً جيداً جداً يا إيفي ولكني أعتقد أنني أحسن مما كنت تظنين.

وحين تبعناهما عبر الممر جذبني صديقي لدى خروجنا قائلاً: أظن أن فائدتنا ستكون أكبر في لندن ممّا هي في نوربوري.

❋ ❋ ❋

لم يذكر هولمز كلمة أخرى عن القضية حتى وقت متأخر من نفس الليلة حين كان متجهاً إلى غرفته



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

وهو يحمل شمعته المضاءة، حيث قال: إذا لاحظت يا واطسون أنني أصبحت شديد الثقة بقدراتي أو أنني أعطي قضية ما مجهوداً أقل مما تستحق فأرجو أن تهمس في أذني بكلمة «نوربوري»، وسأفهمك بالتأكيد.

* * *

-تمت-

صدر من هذه المجموعة

مغامرات شيرلوك هولمز

(١) فضيحة في بوهيميا

(٢) قضية هوية

(٣) عصبة ذوي الشَّعْر الأحمر

(٤) لغز وادي بوسكومب

(٥) بذور البرتقال الخمس

(٦) ذو الشّفة الملتوية

(٧) مغامرة الجوهرة الزرقاء

(٨) لغز العصابة الرقطاء

(٩) مغامرة إبهام المهندس

(١٠) مغامرة النبيل الأعزب

(١١) مغامرة تاج الزمرّد

(١٢) منزل الأشجار النحاسية